قسم اللغة والأدب العربي_جامعة أم البواقي_

محاضـرات مـادة (النقد الاجتماعي) السنة الثالثة ليسانس، تخصص:نقد ومناهج

إعداد الدكتورة:دلال فاضل

المحاضرة رقم: 10

الأفواج: 01-02-03-04

عنـــوان المحاضرة: ألتوسيـــر

تمهيد.

1- لويس ألتوسير: النشأة والخلفيات المعرفية.

2- ألتوسير وقراءة الفكر الماركسي

3- النص الأدبي من منظور ألتوسير

4- ألتوسير والماركسية البنوية.

5- المنظومة المفاهيمية عند ألتوسير.

5-1- مفهوم الإيديولوجيا.

5-2- مفهوم أجهزة الدولة الايديولوجية.

5-3- مفهوم البنية ذات الهيمنة.

تمهيد:

سعت بعض الجهود الفلسفية والنقدية في النصف الثاني من القرن العشرين، إلى إعادة النظر في الإرث الماركسي، الذي تبلور منذ أربعينيات القرن التاسع عشر، على صعيد مرتكزاته، وقضاياه، ومفاهيمه، ومنظوراته، بغية تعميقه، وضبط محمولات مفاهيمه، وتفسير الغامض منه، وفحص قيمته العلمية والإنتاجية، المتعلقة بمنظورات **كارل ماركس** للاقتصاد السياسي من جهة، وعلاقة الأدب بالايديولوجيا والمجتمع والثقافة من جهة أخرى. ومن الثابت تاريخيا أن **ألتوسير** يعود له الفضل في إعادة قراءة الماركسية، وسعيه إلى تقديم فهم جديد لها، وإخضاعها لمقاربة تتواءم وروح عصره، مستلهما مرجعيات معرفية متباينة.

وفي هذا السياق نطمح إلى التعرف على **لويس ألتوسير**، وعلى خلفياته المعرفية، وإسهاماته في إغناء المنهج الاجتماعي، وفحص طبيعة رؤيته المنهجية، وتحديد منظوره للأدب، والكشف عن مفاهيمه وإضافاته النوعية.

1- لويس ألتوسير :النشأة والخلفيات المعرفية.

لويس ألتوسير Louis Althusser (1918-1990) فيلسوف ومنظر للفكر الماركسي، جزائري المولد، وفرنسي الأصل، تؤطر تفكيره الفلسفة المادية الجدلية، إذ استفاد من طروحات **هيغل Hegel** الفلسفية، ونظريات **كارل ماركس Karl Marx** (1818-1883) التاريخية والاقتصادية الذي عكف على إعادة النظر فيها في إطار مشروعه الفلسفي، علاوة على استفادته من تصورات **فلاديمير لينين** السوسيولوجية، واستفادته من تصورات كل من **فرويد Freud وجاك لاكان Jacque lacan** المتعلقة باللاوعي، وتصورات البنيوية المرتهنة بموت المؤلف، ومبدأ التفاعل بين البنيات، الذي يحدد معناها، وعلى هذا الأساس شيّد **ألتوسير** تصوره الذي أدّى "بالارتباط مع البنيوية ومع تحليل جاك

لاكان (Jacque Lacan) (1901-1981) النفسي، إلى إحداث إنعطافة حادة في التقاليد الماركسية".[1]

ويمكن القول في هذا السياق أنه بالرغم من إيمان **ألتوسير** بالفكر الماركسي، فقد انتبه إلى إنتاجية البنيوية في النظر إلى البنية التي لا يمكن فهمها إلا في إطار تفاعلها مع باقي البنيات، وهكذا استطاع أن يعيد قراءة الماركسية برؤية جديدة. واللافت للنظر أنه قد استفاد أيضا –إضافة إلى المباحث السالفة الذكر- في سياق قراءته الجديدة تلك من كتاب "نظرية في الإنتاج الأدبي" **لبيير ماشيري Pier Macherey** الصادر سنة (1966)، الذي كان له الأثر العميق في توجيه وتأطير معالجته مسألة الفن والإيديولوجيا[2].

ومن الضروري الإقرار في الحديث عن الخلفيات المعرفية التي شّيد عبرها صرح تصوره، بأنه قد استلهم مفهوم القطيعة الابستمولوجية الذي بلوره الفيلسوف الفرنسي **غاستون باشلار Gaston Bachelard**، في إطار دراسته لمنجزات **كارل ماركس** الأولى وعلاقاتها بمنجزاته الأخيرة.

اتكاء على المعطيات السابقة يمكن القول إن المرجعيات المعرفية التي أطرت التفكير الفلسفي **لألتوسير** تتجلى في المعطيات الايديولوجية المتمثلة في الفلسفة المادية الجدلية والفكر الماركسي، وبين البنيوية وإواليالتها المتعلقة بمفهوم البنية، والتفاعل، والزمن، والإنسان، وبين المعطيات النفسية المتمثلة في مفهوم اللاوعي عند **فرويد** ولاوعي اللغة عند **جاك لاكان.**

2- ألتوسير وقراءة الفكر الماركسي: الرؤية المنهجية والرهانات المعرفية

اهتم ألتوسير في مساره الفكري بنقد الفلسفة الماركسية، وما طرحته من أفكار ورؤى متعلقة بالمجتمع، وبالثقافة، وبالفن وبالأدب، وقد استطاع أن يطرح تصوراته في دراستين اثنتين، هما "قراءة رأس المال"، ودراسة "من أجل ماركس". وقد أكد الباحث **عبد الوهاب**

شعلان في دراسته الموسومة بـ "القراءة الألتوسيرية البنيوية لماركس" إن **ألتوسير** توخى تحقيق أهداف معرفية عبر دراستيه السابقتي الذكر، ودراسات أخرى تتحدد في "تخليص الماركسية من أوهام الإيديولوجيا، وضبابية المثالية التي أغرقتها في متاهات البؤس النظري، ومن ثم اجتهد في إبراز الأطر العلمية والمنهجية التي تأسس عليها فكر ماركس في فترته الثانية، كما توخى تفعيل الفلسفة الماركسية الفرنسية، وإثراء الخطاب النظري الفرنسي الذي أوشكت أن تقضي السجالات السياسية والصراعات الايديولوجية"[3]. وهكذا شّيد **ألتوسير** مقاربته هذه على غايات معرفية تتمحور حول تقديم فهم جديد للفلسفة الماركسية بوصفها نظرية في الاقتصاد السياسي، والكشف عن قيمتها المعرفية، وتصحيح بعض المفاهيم السائدة حولها، تأتي رأسا مفهوم الدوغمائية، الذي سعى إلى نفيه عنها. كما سعى إلى تحديد الضوابط المعرفية التي تعد مرتكزات الماركسية. إن الوقوف على هذه الرهانات المستهدفة تؤكد وعي **ألتوسير** بضرورة تحيين الفكر الماركسي، وطرح سؤال التجديد والكشف عن جوهره عبر إواليات تتميز بالإنتاجية.

وقد كان دافع **ألتوسير** لطرح سؤال التجديد في الفكر الماركسي مؤسسا على مسألتين إثنتين تتمثلان في[4]:

1-شعوره بالنقص النظري للفلسفة الماركسية في فرنسا، بفعل انصراف الماركسيين الفرنسيين إلى السياسة.

2-الرد على النزعة الإنسانية التي روج لها بعض الماركسيين الفرنسيين أمثال جارودي R.Garaudy، والتي رأى فيها ألتوسير إفقارا للماركسية، وتجاوزا لطابعها العلمي".

من هذا المنطلق فرغم إيمان **ألتوسير** بالفكر الماركسي إلا أن فكره ارتبط "ارتباطا واضحا بالبنيوية وما بعد البنيوية، ويرفض (...) حركة الإحياء الهيغلي داخل الفلسفة الماركسية"[5]؛ متّبعا الصرامة العلمية التي فرضتها البنيوية في التعامل مع الظواهر، وارتباطها بمفهوم النظام والعلاقات. وقد أجمع أغلب النقاد أنه قد اختار نمط القراءة الأعراضية symptomale في سياق محاورته تصورات **ماركس** حول العلاقة بين البنية الفوقية بوصفها تمثل كل النتاجات الفكرية، وبين البنية التحتية المتعلقة بكل الإنتاجات المادية، هذه العلاقة القائمة على مبدإ الجدلية.

فهي قراءة مرتهنة بالكشف عن الحقائق والمعاني المخفية عبر علامات نصية تؤشر عليها، وتكشف عن العلاقات القائمة بين البنيتين، وهي غير مصرح بها، والقراءة الأعراضية، يصطلح عليها الباحث التونسي **الذهبي اليوسفي** في كتابه " الأدب والايديولوجيا في النقد العربي الحديث" الصادر سنة 2016 بالقراءة الكَشْفية، والتي يؤكد بأنها القراءة التي سلكها **ألتوسير** في هذا السياق، وهي "القراءة التي لا تطمئن إلى ظاهر النص، بل تلك التي تحاول الكشف عن خفاياه"[6].

فقد اعتمد **ألتوسير** على هذه القراءة لتفكيك خطاب **كارل ماركس** بوصفه خطابا عّق البعد الفكري في النظرية الاجتماعية، وقد اتفقت دراسات عدة أن **ألتوسير** في مراجعاته قد أكد أن التفكير الفلسفي **لكارل ماركس** في بداياته متباين تماما عنه في نهايته، نظرا لتطور وعيه في النظر إلى القضايا الفلسفية، سيما في كتابه "رأس المال"، الذي خصصه لطرح "المفاهيم الأساسية لعلم الاقتصاد الانجليزي الكلاسيكي، وفقا لمعناها المحدد: القيمة التبادلية، الثمن، وقت العمل، إلخ... وكل التعريفات الأكثر تقدما، في ذلك الزمن، على أساس التجربة العلمية، ثم دمجها جميعا"[7]. وهكذا يمككنا القول إن إعادة قراءة ألتوسير للفكر الماركسي يؤشر على وعيه بضرورة مراجعة هذا المسار، وتحيين مفاهيمه.

3- النص الأدبي من منظور لويس ألتوسير:

إن تصور **ألتوسير** المتعلق بضرورة إعادة النظر في الفلسفة الماركسية، والوقوف على بعض المقولات التي تعد مرتكزاتها، دفعه إلى تحديد منظوره إلى النصوص الأدبية بوصفها "أماكن تعبر فيها الايديولوجيا عن نفسها من غير أن يكون الكاتب عن وعي بذلك"[8].

يتبّين لنا من هذا التحديد أن **ألتوسير** تجاوز مفهوم **كارل ماركس** للأعمال الأدبية التي أعدّها انعكاسا للبنية التحتية ووظيفتها إيديولوجية، إذ إنه يرفض "معالجة الفن (والأدب) بوصفه شكلا من أشكال الإيديولوجيا، ويضع الفن –في ما كتبه بعنوان "رسالة في الفن"- في مكان يتوسط ما بين الإيديولوجيا والمعرفة العلمية. فالعمل الأدبي العظيم لا يزودنا بفهم ذهني عن الواقع، ولكنه في الوقت ذاته ليس مجرد تعبير عن إيديولوجية من الطبقات"[9]. أي إن الإنتاجات الأدبية لا تنقل إيديولوجيا ما، ولا تعبّر عن ايديولوجيا الكاتب، وإنما تسعفنا في اكتشاف طبيعة الايديولوجيا التي تشكّلت ضمنها.

4- ألتوسير والماركسية البنيوية:

الماركسية البنيوية تصور علمي، بلوره المفكر **لويس ألتوسير**، نتيجة التغيرات السوسيوثقافية والتاريخية التي شهدها العالم منذ ستينيات القرن العشرين، مستفيدا من مفاهيم علم الاجتماع، والفلسفة الماركسية، والتحليل النفسي، والبنيوية وما بعدها، منطلقا من المبادئ الأولى للماركسية الكلاسيكية، ساعيا إلى تحيينها وفقا لما يتطلبه العصر آنذاك، وخلخلة بعض مسلمات الفلسفة الماركسية السائدة كالنزعة الإنسانية التي رفضها في سؤال طرحه سؤال التجديد للفكر الماركسي، بوصفها "ارتبطت بالأعمال الأولى لماركس، لصالح بنيوية علمية لكتاب رأس المال"[10]. إذ إن النزعة الإنسانية تقوم على أن الفرد هو مصدر المعنى.

وفي مقابل خلخلته تلك سعى إلى خلخلة بعض المفاهيم وتصحيح بعضها إيمانا منه بمبدإ الدينامية المعرفية، من ذلك نفيه النزعة الدوغمائية على الفلسفة الماركسية، وتأكيده صفة العلمية لها، وتأكيده أيضا أن الماركسية البنيوية تندرج ضمن المرحلة ما بعد الإنسانية –إن صح القول- ليؤكد علميتها نظرا لاهتمامها بما هو خارج الإنسان، وابتعادها عن التمركز حوله، إذ يرى **ألتوسير** بأن "الإنسان لا ينبغي أن يفهم كفاعل محدد لمصيره. بل هو عبارة عن مُنْتَج لبنيات وعلاقات اجتماعية... وأن الإيديولوجيا تتعامل مع الأفراد الحسيين كذوات محسوسة. ومن ثم فإن لها وظيفة بناء الأفراد الحسيين كذوات..."[11].

ومن هذا المنطلق فإن **ألتوسير** تبّنى منظور كل من الماركسية والبنوية المتعلق بالأفراد وإلى مختلف الإنتاجات الصادرة عنها، إذ انتهى إلى أن "البنيوية تشارك الماركسية التسليم بأن الأفراد لا يمكن فهمهم بمعزل عن وجودهم الاجتماعي، فالماركسيون يؤمنون بأن الأفراد حاملون لأوضاع في النسق الاجتماعي. وليس فاعلين أحرارا، والبنيويون يؤمنون بأن الأفعال والأقوال الفردية لا تكتسب معناها إلا من الأنساق الدالة التي تنتجها، ولكن البنيويين ينظرون إلى هذه الآنية الشاملة على أنها أنصاف لازمانية منتظمة ذاتيا، في حين أن الماركسيين ينظرون إليها على أنها أنساق تاريخية متغيرة مشحونة بالتناقضات"[12]. وهكذا كّرس جهده لنقد وتفكيك الفلسفة الماركسية، وإعادة النظر في معطياتها وكشف المضمر فيها الذي يكسبها صفة العلمية، ويمنحها خصوصية نوعية، مستندا على الفلسفة الماركسية، مستثمرا بعض إواليات البنوية وما بعدها.

5- المنظومة المفاهيمية عند ألتوسير:

أثار **لويس ألتوسير** جملة من المفاهيم الفلسفية، تؤشر على حرصه على إحداث نقلة نوعية في الفكر الماركسي، إذ تشكّل مفاهيمه معالم تصوره في مسار النقد السوسيولوجي، ويمكن أن نذكرها إختصار على النحو الآتي:

أولا: الإيديولوجيا: Idéologie

عرف مصطلح الإيديولوجيا تحولا دلاليا خاضعا للتغيرات السوسيوثقافية والتاريخية، وقد ارتبط مفهومه في الفلسفة الماركسية التي احتفت به، وتعددت رؤاها بتعدد رؤى أعلامها، الذين اهتموا بقضية الأفكار والطبقات، فالإيديولوجيا في الفكر الماركسي بمعناها الشمولي ارتبطت "بمفهوم البنية الاجتماعية والطبقية حيث إن كل طبقة تعبر عن مصالحها وسيادتها بمجموعة من الأفكار، وهذه الأفكار العامة المتعددة المظاهر والأبعاد (الحقوق، الأخلاق، الدين، الفن، الفلسفة) هي ما سيطلق عليه ماركس في كتابه "إسهام في نقد الاقتصاد السياسي) لاحقا كلمة إيديولوجيا، وهذه هي ما سيختصرها ماركس في المقدمة نفسها إلى الأشكال الايديولوجية"[13]، بمعنى مفهومها مرتبط بأشكال الفكر.

وقد أسس **ألتوسير** مفهومه للايديولوجيا انطلاقا من مفهوم البنية الفوقية الايديولوجية، وعلاقة الأفراد بإنتاج الفكر، وقد طرحه في مقاله الموسوم بـ "الايديولوجية وأجهزة الدولة الإيديولوجية، نشره في كتابه "مواقف"[14]. ويعد الايديولوجيا في تصوره "مثل اللاوعي بـ ُعُدٌ ملازم للعقل البشري وليس لها بهذا المعنى تاريخ، ما يعني أنه لا يجوز الخلط بينها وبين الايديولوجيات الخاصة، التي تُحدد وجهة المصالح الظرفية لجماعات اجتماعية محددة"[15]. وقد اعتمد على هذا المفهوم قصد التأكيد على أن "وعي الأفراد بظروف وجودهم هو الذي يشكل الانعكاس الحاصل في الايديولوجية، فهي ليست نظام العلاقات الذي يحكم وجود الأفراد فحسب، بل هي العلاقة الخيالية بين الأفراد وعلاقات الإنتاج التي يعيش هؤلاء في ظلها"[16]. بهذا المعنى فقد أكد بأن الإيديولوجيا مرتهنة بالعلاقة الخيالية بين الأفراد وظروف وجودهم من جهة، مرتهنة أيضا بوجودها المادي من جهة أخرى.[17]

ثانيا: مصطلح أجهزة الدولة الايديولوجية

يعد هذا المفهوم من أعمق المفاهيم التي احتفى به **ألتوسير** في إطار الماركسية البنيوية منذ سبعينيات القرن العشرين، وقد اهتم به في سياق بلورته مفهوم الايديولوجيا إذ يرى بأنها "تتواجد ضمن جهاز معّين وداخل الممارسات المرتبطة به، وحدّد مجموعة من المؤسسات كأجهزة إيديولوجية للدولة، وهي الأسرة ونظام التعليم والكنيسة، ووسائل الإعلام الجماهيري"[18]. بهذا المعنى فإن الايديولوجيا تتجلى عبر مؤسسات الدولة المختلفة سواء أكانت مؤسسات تعليمية كالمدارس والجامعات، أو مؤسسات دينية كالمساجد والكنائس، أو مؤسسات ثقافية كالأدب والفن، وكذلك الإعلام، والقانون كالمحاكم مثلا أو أجهزة الدولة إلى صنفين اثنين، بناء على طريقة عملها، إما عن طريق القمع أو الايديولوجيا، فالصنف الأول يتمثل في أجهزة الدولة القمعية التي تؤدي عملها بواسطة القمع، أما أجهزة الدولة الإيديولوجية، فتؤدي عملها عن طريق الايديولوجيا.[19]

ثالثا: مفهوم البنية ذات الهيمنة Structure a dominante

يعد مفهوم البنية ذات الهيمنة مفهوما مركزيا في التصور الألتوسيري، له عميق الأثر في تحديد منظوره للعلاقة القائمة بين البنية التحتية والبنية الفوقية، و"قد تبين أن العلاقة بين هاتين البنيتين تتشكل هرميا، تبقى هذه البنية الهرمية مندرجة بشكل دائم. ولكن من يحتل قمتها، أي من يكون في موقع قيادي فيها، يتغير بصفة مستمرة، فقد يكون الاقتصاد مهيمنا، أو قد تكون السياسة مهيمنة... ولكن الاقتصاد هو الذي يحدد في آخر الأمر أي جانب يقود ويهيمن، وهذا ما كان يقصده ماركس عندما أشار إلى دور القاعدة الاقتصادية في إحداث تغيرات في البنية الفوقية عاجلا أو آجلا"[20]. بهذا المعنى فإن آلية الهيمنة هي التي تتحكم في العلاقة بين البنية التحتية والفوقية وفقا لتصور **ألتوسير**. وهي بنية تتميز بالدينامية ومرتهنة بتغيرات الظروف على تعدديتها.

وختاما، فمن دون شك أن جهود **لويس ألتوسير** تكتسي عميق الأهمية في النظرية السوسيولوجية، رغم ما لقيت من انتقادات عدّة. إلا أنها أسهمت في تطوير بعض مفاهيم الفلسفة الماركسية، واستجلاء قيمتها المعرفية.